محمد رابح فيسة

مقياس العمار التقليدية ماستر 2

المحور الثاني :

المحاضرة السابعة : العمران التقليدي بقرى بني سنوس مظاهره وتجلياته

مقدمة :

يعتبر العمران الريفي من بين المباحث العلمية الهامة في مجال الدراسات الانسانية عامة و الأثرية بصفة خاصة ،إذ أنه يدرس العديد من المجالات في آن واحد ، وبه يمكن للباحث أن يطلع على طبيعة العلاقة الموجودة بين التكوين الاجتماعي للمستوطنات الريفية و المحيط الطبيعي لها ويعي مفاهيمها الخاصة،كما يمكن من خلاله معرفة الشروط والضوابط التي بها تحصل تلك التجمعات،ومن جهة أخرى فإن العمران الريفي يقدم لنا تصورا دقيقا عن حياة الفرد في رقعة جغرافية محددة يتم فيها التفاعل والتعامل بإمكانيات بسيطة نابعة عن فكر اجتماعي بسيط مبني على عادات وتقاليد وأعراف اجتماعية توارثها سكان القرى أبا عن جد.

وإذا كانت تلك أهمية العمران الريفي نظريا ،فإن دراسته من خلال تطبيقاته الميدانية على ضوء الكثير من الشواهد الأثرية والمعمارية في قرى بني سنوس[*] بالريف التلمساني والتي لا تزال تؤدي وظيفتها كما كانت عليه في السابق،تؤكد لنا مدى أهميته ،كما تبين لنا مدى تعمق الفكر العمراني لهذا المجتمع التقليدي رغم بساطته في التعامل مع البيئة الطبيعية المحيطة به ، فغريزة البقاء لدى سكان الريف في هذه المنطقة حثتهم على تكوين مجتمع تقليدي بسيط يقوم على حفظ النفس والغذاء بتوفير المأوى وممارسة النشاط الزراعي الذي لا يزال سكان القرى إلى يومنا هذا يعتنون به ويولونه أهمية خاصة فيما بينهم،وبما أن مثل هذه الدراسات تبين لنا الخصائص العامة للحياة الريفية ومضامينها ،فإنها بالموازاة لما تشهده المدينة من حركة عمرانية راقية وتطور حضاري متميز ،تهدف إلى إبراز أن الريف هو الآخر يشهد نفس الحركية و الرقي لكن في طابع محلي بسيط .

مفهوم العمران الريفي:أنظر: (الشكل رقم 1**)**

تشير لفظة العمران إلى أية جماعة بشرية تقيم معا في مسكن واحد أو في مجموعة من المساكن المتجمعة ،وتتميز هذه الجماعة بتعاونها إلى أدنى حد في بعض الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية إلى جانب وجود عدد من المظاهر المتنوعة كالمساكن والأقبية والمخازن والطرق التي تنشأ وتصان بطريقة جماعية[1]، كما تشير كلمة (Settlement) في اللغة الانجليزية إلى الاستقرار في مراكز أو أقاليم تتوفر فيها الخدمات بصرف النظر عن حجم المركز العمراني سواء أكان قرية أو مدينة ضخمة السكان[2]،وبمرور الزمن تطورت لفظة العمران لتعرف بمفهومها الحديث علم الاجتماع ومنه نجد التعريف الذي أطلقه علماء الاجتماع في تعريفهم لاجتماع الناس وتشكيلهم ما يعرف بالعمران في قولهم الإنسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة وهو معنى العمران فالله

سبحانه وتعالى خلق الإنسان وركبه على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء ،فقدرة الواحد من البشر قاصرة على تحصيل حاجته فلا بد من اجتماع القدر الكبير من أبناء جنسه ليحصل له القوت ويؤمن حاجاته التي لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفا خوري ... [3] .

إذن فالاجتماع ضروري للنوع البشري وإلا لم يكتمل وجوده وشابه العيب والنقصان إذ النفس البشرية بطبيعتها لا تهوى التوحد والتفرد لما حباها به الله من حب لاعتمار العالم وحب التصرف فيما استخلفها فيه،وقد حدد لنا ابن خلدون مفهوم العمران في غاية من الدقة بقوله:(...فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد إلى البدو لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك ،فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمرا ضروريا لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكنّ والدفئ إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بُلْغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك)[4]، ولا يكتفي ابن خلدون بالحديث عن حياة البدو وسبل تحقيق معاشهم بل نجده في موضع آخر من كتاب المقدمة يؤكد على أن أهل البادية هم أصل الحضر بقوله:"...ومما يشهد لنا أن البدو أصل الحضر ومتقدم عليهم أنا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أوّليته أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضر، وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها فتفقهه."[5]،ومن الملاحظ أن ابن خلدون قد قام بتصنيف السكان في التجمعات السكنية حسب أعمالهم ومهنهم ،فمنهم من يعمل بالزراعة وتربية المواشي وهم من البدو ولابد أن يكونوا من سكان القرى والقصبات وعمارتهم عندئذ تكون بسيطة وطينية أو من الحجارة غير المنجدة كما نجد أن ابن خلدون يركز دوما في حديثه عن العمران على الجانبين الاقتصادي والاجتماعي لإبراز الظاهرة العمرانية للتجمعات السكانية بشكل رئيسي حيث أن المدينة مركزا للتجارة والحرف والقرية تتركز فيها النشاطات الزراعية وتربية الحيوانات[6]

لا غرو ونحن نتحدث عن مفهوم العمران الريفي من الإشارة إلى أن ابن خلدون لم يذكر في معرض حديثه عن العمران كلمة (الريف) لأن جل اهتمامه كان يصب في التركيز على المقارنة بين سكان البادية وأهل الحضر، حيث جعل البادية مبدأ وأساسا لتكون الاجتماع الإنساني ثم الحضاري الثقافي أي الوصول إلى حالة الحضر ، فهذا المنظور الخلدوني في تفسير الأحداث التاريخية جعله يركز كل اهتمامه على مفهوم البداوة التي لا يعني بها المفهوم الضيق لها وهم سكان القفار بل هو يعني كل من هم ليسو أهل المدن[7] .

ويرى علماء الاجتماع أن العمران الريفي هو فرع من فروع علم الاجتماع العام، بل ومن أقدم هذه الفروع ،وهو علم وصفي تحليلي يدرس البناء الاجتماعي للمجتمع المحلي الريفي والحياة الاجتماعية ،والظواهر والنظم الاجتماعية التي تنشأ عن معيشة الأفراد في البيآت الريفية بما تشتمل عليه من معايير وعمليات وجماعات ومشكلات اجتماعية ،أي دراسة القرية باعتبارها ظاهرة اجتماعية[8]تتفاعل فيه الجماعة الريفية وعلى مستوى البناء بين مجتمع محلي ريفي وآخرين على اعتبار أن الإنسان يشبع حاجاته البيولوجية من خلال تفاعله واستغلاله للبيئة الطبيعية ،وهذا التفاعل بين الاثنين (الإنسان والطبيعة) ينتج عنه أنماط من السلوكيات والعادات والتقاليد والعرف[9].

وخلاصة القول فالمجتمع الريفي هو ذلك القسم من المجتمع الذي يعيش سكانه في منطقة جغرافية محددة على أنها مناطق ريفية ،وهؤلاء السكان نشأت بينهم علاقات اجتماعية أقاموا من خلالها جماعات ومؤسسات اجتماعية ريفية ومرافق مختلفة والتي عن طريقها يشبعون احتياجاتهم الاجتماعية والاقتصادية النفسية ،وقد أصبحوا بحكم القرابة و الجيرة السكانية والمصالح المختلفة ثقافة وحضارة ريفية واحدة[10]يعتز فيها الفرد الريفي بريفيته ويسعى جاهدا للتمسك بعاداته وتقاليده لكي يجد ما يورث لأبنائه وأبناء قريته .

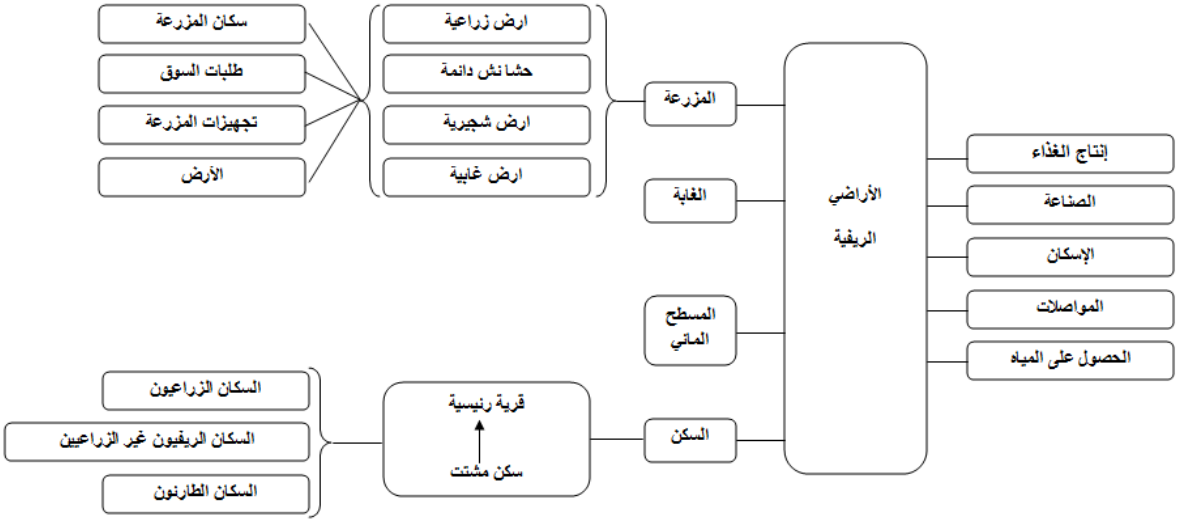

الشكل رقم: 1 مكونات العمران الريفي

عن : صلاح عبد الجابر عيسى،**دراسات جغرافية عن البيئة الريفية**،دار الكتب والوثائق القومية،مصر،2008،ص 16. (بتصرف).

مفهوم الريف:

الريف بالكسر أرض فيها زرع وخصب وسعة في المأكل والمشرب،وما قارب الماء من أرض العرب او حيث الخضر والمياه والزروع[11]،وقد ذهب بعضهم إلى أن كلمة ريف لها دلالتان الأولى :حضرية وتشير إلى الاستقرار ومنه قول الله سبحانه وتعالى:(فأزلهما

الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) [12]والدلالة الثانية زراعية مرتبطة بخصوبة الأرض وجودة مناخها[13].

أما إذا عدنا إلى البحث عن معانيها في اللغات الأخرى نجد في اللغة اليونانية أن لفظة (Rus) تعني الريف وأن هذا الموصوف أعطي للمضاف إليه فأصبح (Ruris) الذي يحمل صفتين متشابهتين هما (Rustitus) و(Ruralis) وهاتان الصفتان هما الصفة الريفية[14] ،ومن بين المعاني الظاهرة للريف هي تلك التي تهتم بالمفهوم العام للريف ومنها أن الريف هو نوع معين من المناظر الخاصة بمنطقة ترابية مفلوحة من قبل الإنسان أو على الأقل يستعملها للفلاحة أو لتربية المواشي والأنعام بصورة عامة،فالريف إذن صفة تطلق على كل ما يتصل بالريف وهو ضد الحضر،وإذا أطلقت على شخص فمعناها أنه ساكن الريف أي ممن يقومون بأعمال تتصل بالزراعة ويمكن إطلاق اللفظة على بعض الناس الذين لا يشتغلون بالفلاحة وإن كانوا من سكان الريف[15] .

وقد تداولت لفظة الريف بألفاظ أخرى ففي العراق يسمى أهل الريف بالسوادية نسبة للفظة السواد ،أما القروي أو القرياتي فتلك لفظة يستعملها أهل الشام ،بينما في فارس تستعمل لفظة رستاقي[16]،وكل هذه الألفاظ لها نفس المدلول .

مفهوم القرية [(**)]:

القرية المصر الجامع والنسبة لها قروي قرى وأقرى لزمها والقاري ساكنها[17]،ولقد ورد لفظ القرية في القرآن الكرم سبع وخمسون مرة في حين لم ترد لفظة مدينة إلا سبعة عشر مرة ،وإلى جانب هذا الفارق الكمي كان للفظة "القرية" دلالة اصطلاحية أقوى وأشمل من المدينة فقد وردت بمعاني عدة : القرية ،البلدة ،وأحيانا المدينة في مواضع أخرى [18] ،ومن الفلاسفة من يرى بأن القرية خادمة للمدينة[19]،وأنها غير كاملة وقد صرح ابن خلدون بذلك حين يصف أهل الريف بأنهم يمتهنون الفلاحة وببعدهم عن الحياة الناعمة والرياش[(***)] والسكن الفخم وبالتالي فإن ثقافتهم هي الأخرى متواضعة وبسيطة وأولية [20].

وفي الأخير يمكن وضع هذا التعريف الشامل، فمنهم من يراه مقدمة لكل دراسة لها علاقة بالقرية، فالقرية هي ذلك التجمع السكاني العمراني الأكثر بساطة وبدائية وسكونية في المجتمع وتتألف من مجموعة من السكان يعملون بشكل أساسي في الزراعة وتربية

المواشي ،وتفتقر القرية إلى التنظيم،وكذلك جملة من الخدمات والميزات التي لا تتوفر إلا في المدينة فقط[21].

وحتى لانحيد عن موضوع الدراسة لم نرد الخوض في تفاصيل أكثر دقة عن القرية فقد أنجزت حولها العديد من الدراسات التي بينتها.